الأدب الإصلاحي في الجزائر
"دراسة تحليلية لأدب حوحو"
القسم الثاني

الدكتور/ محمد خان
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:
ننطلق في هذا البحث من قناعة تؤكد أن ما كتبه الجزائريون بالعربية منذ ثلاثينات هذا القرن ينتمي في معظمه إلى الفكر الإصلاحي الذي رعته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وأحمد رضا حوحو من أبرز الكتاب في هذه الفترة، وكان الناقد الساخر، والمصلح الاجتماعي ، والقلم الجريء الذي كتب المقالات والمسرحيات والقصص.

Résumé :
Nous partons dans cette recherche d'une conviction selon laquelle tout ce que les Algériens ont écrit en arabe depuis les trois premières décennies de ce siècle appartient dans son ensemble à la pensée réformiste assistée par l'association des savants musulmans. L'un parmi les grands écrivains de cette même période. Ahmed Ridha Houhou était à la fois le critique et le sarcastique,le réformateur de société et aussi l'écrivain audacieux qui a produit non seulement des reproductions scientifiques mais aussi des pièces théâtrales et des contes littéraires .

حوحو أديبا

لم يظهر للحرف العربي لون في الجزائر إلا في ثلاثينات القرن العشرين على يد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت تهدف في المقام الأول إلى إحياء المقومات الأصيلة للشخصية الجزائرية، ونشر التعليم العربي في هذه الديار التي هيمنت عليها المدرسة الفرنسية ومقاومة الانسلاخ والاندماج والتجنيس ، وبذلك ركزت على الفنون القولية المعروفة في التراث كالشعر والخطابة, والمقالة[٢-□]، لخدمة أهداف الجمعية مباشرة، ومخاطبة الشعب بما يسهل فهمه ، ويستجيب لذوقه، ،فيحصل الإبلاغ والتواصل بين النخبة والجماهير.

لقد كان الأدباء عموما يسيرون في ركاب الجمعية، وينادون بدعوتها، ويدافعون على مبادئها, ويناوئون أعداءها.هادفين إلى خدمة الإسلام والعربية والجزائر، وظل هذا المثلث شعار الجمعية وأتباعها إلى قيام ثورة التحرير المباركة حيث انصهر كل الوطنيين في بوتقة جبهة التحرير الوطني من أجل الاستقلال، وقيام الدولة الجزائرية المعاصرة.

ومن أبرز خصائص الأدب الجزائري-قبل الثورة-المحافظة على الموروث الثقافي والحنين إلى أمجاد الماضي، وبعث الأدب القديم في هذا العصر، ولا يستثنى هذا التوجه إلا فئة قليلة، في مقدمتهم أحمد رضا حوحو الذي جدد بعض التجديد[٢-□] ولكنه لم يتجاوز دائرة كتاب الإصلاح، الذين يكتبون المقالات الصحفية, والأدبية لسرعتها تأدية الغرض، وبلوغ الهدف الذي يبتغيه أصحاب هذه المقالات.

◄ -□-المقالة القصصية، والصورة:

المقال القصصي عبارة عن مقال إصلاحي في مضمونه،ووظيفته. هدفه الدعوة الإصلاحية وشرحها بأسلوب قصصي جذاب[-□□]. وهذا النوع من الأشكال الأدبية يبدأ عادة بمقدمة وعظية ،مع سرد للحوادث، وتركيز على الفكرة، وإبراز الهدف من كتابته[□□□]. وإذا انطلقنا من هذا التعريف فإننا نجد حوحو قد كتب هذا النوع من الأشكال الأدبية مثل(الشخصيات المرتجلة وفقاقيع الأدب ومع حمار الحكيم...).

إنه يبدأ مقاله (الشخصيات المرتجلة) بتعريف معجمي لمعنى (ارتجل)، ويسقطه على الشخصية المرتجلة التي طبخت على عجل في مرجل الأنانية والدجل. وهدفه تبيان الزعماء الحقيقيين من المزيفين, حتى يكون الشعب على بينة من هؤلاء الأدعياء[□□□]. وكتابه (مع حمار الحكيم) يشبه طريقة المقامة في الأدب العربي، فالبطلان لا يتغيران في كل جلسة، وهو"مجموعة من المقالات النقدية في الأدب والسياسة والاجتماع، أجراها كاتبها، وأجاب بها على لسان حمار فيلسوف ينظر إلى الناس بمنظار واقعي"[□□◄] عرفت هذه الطريقة في كثير من الآداب، إذ يلجأ إليها الكتاب عندما يشتد الظلم، والقهر ، فيخشى المفكرون على أنفسهم إذاصدعوا

بآرائهم.كذلك يعد بعض ما كتبه حوحو من الصور القصصية التي تكون فيها الشخصية، نموذجية ثابتة، لا تتطور ولا تتفاعل مع الحدث مما يفقدها التركيز،ويشيع فيها الاستطراد من هذه الصور القصصية مثلا (العصامي) الذي يشق طريقه بإرادة فولاذية، ويحقق ما يريده عبد الباقي شخصية لا تتطور، مسطحة دائما تحقق الهدف تلو الهدف.فهي تسجيل للواقع خال من كل فن.

وإذا كانت في ذلك الوقت شغل الناس وحديثهم اليومي(□□). فقد صار القراء معجبين بما يكتبه حوحو من مقالات(مع حمار الحكيم)"التي كان ينشرها في البصائر،ويتساءلون عن انقطاعها المفاجئ. لأنها تعالج قضايا هامة يعيشها الناس بأسلوب طريف تنجذب إليه نفس القارئ انجذابا ".(□□) ـ.

وقد وفق حوحو إلى حد كبير في تصوير حياة المجتمع بمختلف قضاياه الهامة في عصره واستطاع أن يكشف عيوبها ومساوئها، وينقدها بأسلوب ساخر، وجرأة قوية، وما هذا إلا وجه من وجوه إبداعه، وقد نوه الدارسون للأدب الجزائري بإبداعه في مجال القصة الفنية، وجعلوه من روادها في الوطن "وهي الوجه المميز والمعروف به في تاريخ الأدب الجزائري الحديث."(□□).

◄ – – القصة القصيرة (الفنية):

يدرك كل دارس لأثار حوحو أن بين ثناياها موهبة أدبية ، لا تخلو من إبداع وتجديد, وتتميز برؤية فنية متطورة إذا ما قيست بالوضع الثقافي حينذاك ، وهو الأمر الذي جعله رائد القصة في الجزائر، وباعثها إلى الوجود، والداعي إليها في كل مناسبة، فقد كتب أكثر من مرة عن الفن القصصي في الصحف،وركزعلي الحوار بين الشخصيات القصصية ، وما يناسب كل شخصية من الحوار وفق مستواها وجنسها وسنها...فليس الرجل كالمرأة ولا الكبير كالصغير...(□□).

إن"غادة أم القرى"– التي تقع بين القصة والرواية هي أول عمل قصصي له وتتجلى فيها موهبته الأدبية وقدرته الفنية في تصوير فتاة تعيش بين عواطفها وبين طاعة والدها المحتكم إلى التقاليد فيختل توازنها، و تنهار، و تكون نهايتها وهذا العمل الأدبي من أنجح أعماله القصصية.

وإذا ما احتكمنا إلى المفهوم السائد في عصره، وتحررنا منه قليلا في تحديده للقصة الفنية فإننا نعتبر أعمال حوحو من القصص القصيرة مثل زروق, وسيدي الحاج, وثرى, الحرب, وسي زعرور وعائشة, وخولة...

ومما يلاحظه الدارسون على قصص حوحو شيوع التقرير في سرده، والإفصاح عن آراء الكاتب، ففي "غادة أم القرى" –وهي أنجح قصصه– تعبير عن آراء الكاتب بأسلوب تقريري(□□). وكذلك عدم الإقناع، ففي قصته (جريمة حماة) لا يذكر السبب الذي جعل هذه الحماة تسعى إلى تطليق ابنتها التي هي راضية بعيشتها مع زوجها، و لم تشك منه إطلاقا .و هي أحداث يسردها صاحبه (الزوج) مبتدئا قوله :"أقدمت

حماتي المجرمة على أفضع جريمة"(٢٠٠٥) ونضع علامة استفهام أمام (حماتي المجرمة) لأننا لا ندري السبب، ومنه لا نتعاطف مع هذا الزوج الشاكي.

وقريبا من هذه القصة تأتي قصة (فتاة أحلامي) مثالا واضحا في عدم الإقناع، فقد حادثها في السينما وفي الطريق، وحمل لها الطرود، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يعرفها حتى يصل إلى الجامعة فيدرك أنها(بولوني الناظرة)(٢٠٠٥). ومما يزيد في ضعفها الفني مقدمتها الطويلة التي تصلح أن تكون مقالا عن حياة الجامعيين العابثين، تنفصل عن بقية الأجزاء التي تبدأ منها القصة هكذا(قصدت ذات مساء إحدى دور الصور المتحركة.. (٢٠٠٥)

و قصة (سي زعرور) يمكن تجزئتها إلى قصتين، فالجزء الأول تنتهي بطرد سي زعرور من المدرسة، والثانية تنتهي بثرائه من الاختلاس. فالجزء الأول يعالج جشع المديرين واستغلالهم، ويعالج الجزء الثاني سرقات النواب(٢٠٠٥).

ومن الضعف الفني في قصص حوحو التصريح والمباشرة، فقد يصرح بآرائه واعظا في بداية القصة أو في نهايتها، وفي مقدمة قصة (عائشة) يخصص صفحتين للحديث عن النساء الجزائريات وأوضاعهن الاجتماعية التي تقل عن درجة الحيوان(٢٠٠٤).

ويصرح في مقدمة قصة (الفقراء) بـــأنه تأثر بالبؤساء لفيكتور هيجو، فجاءته "هذه الخاطرة التي أقدمها للأغنياء، وأنا واثق من أنهم لن يتخذوا منها عظة ولا عبرة، وأنىّ لنفوسهم أن تتعظ أو تعتبر، وقد أفقدتها الشهوات الجائعة السمع والبصر"(٢٠٠٤).

لو حذف حوحو هذه التقريرات والتصريحات لكان أفضل لقصصه من الناحية الفنية، ولكن يبدو أنه كان يقصد هذا قصدا. وقد دعا إلى "أدب القصة الذي نحن في أشد الحاجة إليه للنهوض بالأدب من جهة، والتقويم الخلقي من جهة أخرى"(٢٠٠٥).

وقد شاعت الفكرة الأخلاقية والموعظة الحسنة في الأدب العربي، وكان مرغوبا فيها في الزمن السابق، يتسابق إليها الكتاب والمبدعون.

يكاد أدبه يكون تصويرا للواقع المعيش، فقيرا من الناحية الفنية، وقد قال في كلمته إلى القراء ما يلي: لم ألجأ إلى الخيال أغرف من منهله الزاخر، وأحلق في أجوائه الرحبة، وإنما توجهت إلى الحياة، فانتزعت من صميمها هذه الوقائع التي عرفت بعض أبطالها، وعشت معهم ، واستمعت إلى أحاديثهم(٢٠٠٥). نقلها على لسان بعض أصدقائه مثل قصة صاحبة الوحي، والقبلة المشؤومة ، وجريمة حماة, وثري الحرب...

٤ - ٤ -خصائص أسلوب حوحو

يتميز حوحو بالاطلاع الواسع والثقافة المتنوعة،وهذا ما يستنتج من تصديره لبعض أعماله فهو يصدرها بآية قرآنية(الفقراء)،أو ببيت شعري(ثري الحرب)،أو بقول أحد الكتاب (يحي الضيف), كما صدر مجموعة(نماذج بشرية) بقول للابروبيير،وقصة (غادة أم القرى) بقول لأندري جيد.وصرح في مقدمة(الفقراء) بأنه تأثر بفكتورهيجو،وأعلن بأنه اقتبس من الفرنسية قصة (سي زعرور)،وتأثر تأثرا شديدا بكتاب الطبائع(**LES CARACTERES**) للابروبيير,فاستوحى منه مجموعته (نماذج بشرية).

يقوم حوحو بتضمين أعماله أمثالا عربية مشهورة مثل"كأنه علم في رأسه نار"(٢٥) عوضه بدل درهمه دينارا"(٢٤).أو أقوالا عامية دارجة مثل "الدعوة مطينة يالولاد"(٢٣), و"المجانين في راحة"(٢٠)و "قداش انبابورغرق لك؟"(١٩).

ويبدو أنه متأثرجدا بالمظاهر الرومانتيكية مثل"الطهر والقداسة والجلال الإلهي, والخمر المعتقة, وعالم الروح, والحب المقدس والصوت الملائكي "كما في قوله عن المرأة:"إن التي أحدثك عنها ملاك من الملائكة لا تمت إلى أهل الأرض بصلة"(١٨)،

هذه الرومانتيكية المثالية جعلت شخصيات قصصه راضية مستسلمة، لا تصارع الواقع ولا تثور عليه فيكون مصيرها الفشل والانطواء، كما يتميز أسلوب حوحو بالتهكم والسخرية والرسم الكاريكاتوري للشخصيات التي يكتب عنها، مطبوعا بالصدق والخفة والدعابة، مستخدما ألفاظا بسيطة, وجملا قصيرة, ومعاني واضحة لا تعقيد فيها،ولا تعب في فهمها، تستهوي القارئ فيقبل على قراءة أعماله بشوق.قال في قصة فتاة أحلامي"(١٦).جميع فتيات المدينة الجميلات منهن والدميمات أضربن عن مغازلتي، وأبرمن اتفاقا بذلك"هذا موقف ساخر من شاب يقف في طريق الفتيات ينتظر مغازلتهن له ولا واحدة تأبه به كأنه بضاعة كاسدة.

ولا يستطيع القارئ أن يمنع نفسه من الضحك على حمار يستعمل ساعة في رجله قال" ثم ألقي نظرة خاطفة على ساعته الرجلية"(١٦). واستمع إليه, وهو يعبر عن مفارقات عجيبة في جمل قصيرة كقوله:"بلغت جثته وزن الفيل وبلغت روحه وزن الريشة"(١٧)وقوله: "غلا ثمنه، وخف وزنه(١٦). وقوله :"دخل عليه ببطنه المنتفخة، وسمة الغضب تعلو على وجهه"(١٥). فما تحدث حوحو عن شخصية يمقتها إلا وصفها بانتفاخ البطن، وقد صرح بهذا على لسان صديقه الشاعر قائلا :"يكره ذوي الأجسام الضخمة، وكثيرا ما نجده يترنم بالشعر الذي قيل في هجوه الضخام(١٦).

يستخدم حوحو لفظ (سيدي أو سي) للتهكم من الأشخاص الذين يسخر منهم مث(سيدي الحاج) و(سي زعرور) و(سي شعبان)" وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى وجد شعبان نفسه (سي شعبان(١٣).

حوحو مولع بالعين النجلاء لكل فتاة وصفها، وبضخامة البطن لكل شخصية نقدها. وبنحول الجسم لكل إنسان أعجبه–وهو نحيل الجسم، ضعيف البنية–وما فتئ يعلن موقفه الإصلاحي من كل القضايا التي عرض لها،معبرا عن القيم الأخلاقية والإنسانية، وعلى الرغم من كل ذلك يبقى حوحو الأديب الجريء، والناقد الساخر، والمبدع المجدد الذي تصدر طليعة الذين رفعوا راية الحرف العربي بكل إيمان وإخلاص.

مراجع وهوامش

108- سعيـد الأخضـر سلام, أثر جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين في الحركة الأدبية في الجزائر, رسالة ماجستير – مخطـوط- جامعة عين شمس, كلية البنات, قسم اللغـة العربية, القـاهـرة 1979, ص 350-355.

109- الدكتـور عبد الملك مرتاض, نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر, الشركة الوطنية للنشـرو التوزيع, الجزائر, 1971 , ص 147.

110- الدكتور عبد الله خليفة الركيبي, تطـور النثر الجزائري الحديث, الدار العربية للكتاب ليبيا. تـونس, 1978 ,ص 167.

111- الدكتور عبد الله خليفة الركيبي, تطـور القصة الجزائرية القصيرة, الدار العربية للكتاب ليبيا. تـونس, ص3, 1977 ,ص .55

112- حـوحـو, الشخصيات المرتجلة (نماذج بشرية), ص .75

113- عبد الوهاب منصور, مع حمار الحكيم, البصائـر, عدد 232 , بتاريخ 15جويلية 1952.

114- نفسـة .

115- سعيد الأخضـر سلام, مرجع سابق, ص 360.

116- عبد الرحمن شيبان,مقال أين حمار الحكيم؟ , البصائر, عدد 87 بتاريخ 18 جويلية, .1949

117- عبد الله بن حلي, القصة العربية الحديثة في الشمال الإفريقي –مخطوط – رسالة ماجستير جامعة عين الشمس, كلية الآداب, القاهرة1976 , ص 167.

118- حـوحـو, استنطاق الشخصيات في الأدب القصصي, البصائر, عدد 66,بتـاريخ 7 فيفري 1949.

119- حوحو, غادة أم القرى, 46. وهو تصريح بآرائه مباشرة

120- حوحو, جريمة حماة,(صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص .69

121- حوحو, فتاة أحلامي(صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 35.

122- نفسه , ص 33.

123-حوحو, سي زعرور (نماذج بشرية) , ص 115 – 124 .

124-حوحو, عائشة(نماذج بشرية), ص 21 , 22 .

125-حوحو, الفقراء (صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 72.

126-حوحو, استنطاق الشخصيات في الاذب القصصي البصائر,عدد 66 بتايخ 7 فيفري 1949.

127-حوحو, الى الغراء (صاحبة الوحي و قصص أخري) ,ص .3

128-حوحو, ا لأستاذ (نماذج بشـرية) ,

129-حوحو, سي زعرور (نماذج بشـرية) , ص 122.

130-حوحو , العم نتيـش (نماذج بشـرية) , ص .45

131- حوحو مع حمار الحكيم، مرجع سابق، ص68 يقال في الأوساط الشعبية الجزائر" أهل العقول

في راحة" والظاهر أن حوحو قلب التركيب، فقال: المجانين في راحة. أو هذه المقولة كانت متداولة في عصره وهو أمر بعيد.

132- حوحو رجل من الناس (نماذج بشرية) مرجع سابق ص61. هذا مثل عامي، يصاغ كالأتي: كم باخرة غرقلك ؟ يقال للذي يبالغ في التفكير ، ويشطح بخياله فيبتعد عن محدثه ولا يسمعه، فيخاطبه معاتبا: قداش أنبا بور رغرق لك.

133- حوحو, صاحبة الوحي وقصص أخرى, مرجع سابق ص13.

134- نـــــفـــــســـــه ص32.

135- حوحو, مع حمار الحكيم ص17.

136- حوحو, يحي الضيف(نماذج بشرية) ص112.

137- حوحو, العم نتيش(نماذج بشرية) ص46.

138- حوحو, سي زعرور(نماذج بشرية) ص115.

139- حوحو, صديقي الشاعر (صاحبة الوحي وقصص أخرى) ص80.

140- حوحو, ثري الحرب (صاحبة الوحي وقصص أخرى) ص42.